صور

من حياة البائسين - ١

. . وانحدرت الدموع على خدها الذابل ، وتتابعت من عروق ظالما صرعت بواسل فأصبحت متكسرة ، ولكن فى حزن وكآبة ، وذلة ومهانة ، ومد البؤس يده السوداء إلى ملابسها الجميلة فمزقها ، وأتى ، فى قباء قدها المياس ثم حطاها ، وانتفاً نور شبابها وحيا شذاها . .

وخرجت بنفس واهية ، وقلب كئيب محزون ، محطم الأمانى مذبوح ، يضطرب فى صدر ضاق عليه بعد أن كان به فرحا طروبا ، يريد الفرار من مقام ظالما وقمس فيه وغرد ولم يعلم أنه سيكون رمسه ولابد أن يلقى به حتفه . .

بقاع الحالة الأليمة الموجعة طردها زوجها القاسى وطفلها يبكى على ذراعها المرتعش ، فتضمه إلى صدرها النحيل ، ويلف رطب ذراعيه حول جيدها الماثل وينظر إلى أبيه نظرة المستعطف ، فلا يحن ولا يعاطف ، يسترحمه بلحن اللغة البريئة ، بلحن حزين . . يا يا . . يا . . فلا يرق ولا يرحم .

قلب مات وتحجر فلم يلن حتى لمن شغف بحبها وهو عزيز ، ولم يقبل لها شفاعة حتى من كبده وثمرة حبه وأصبح الآن يطرحها فى أحضان البؤس ، وهى ترضى أن تكون معذبة ، ورماها بعد أن التذ بنضارتها ، وعل من جمالها سئم .

لم تدر ... ما الجانى ؟ أجنى عليها زوجها بانتهاسه فى بؤر الفساد والفجور ، وإدمانه أنواع المخدرات فنسى نفسه وأصبح حكرة تتقاذفها أيدى الدائنين وساءت سمعته حتى فصل من عمله وصار عبئا ثقيلا لا تحتمله الأرض وتأبى أن تحمله فى جوفها ... أم جنى عليها جمالها الفاتن ... آه ... جمالها عيون ناعسة ، فاتنة فى هدوء ، ساحرة فى سكون ، ولحاظ ... جارحة وفيها دواء ... وجفون آسرة بأهدابها السود وفيها انطلاق ، ... عيون ... قاسية شقية .. فاتنة وحيية ... صامتة بليغة ... حادثة ثائرة ... عيون ... جائرة وفيها إنصاف ، غازية ولكن فى دفاع ... وثغر بسام ، هو حكوثر الحياة ، ينبثق من أسنان يغار منها اللؤلؤ ، وشفاه يذوب منها العقيق ، ولسان ينظم نغمات صوتها العذب الرقيق ... وشعر ... وجيد .. وقد .. وروح ... ونفس ... وقلب ... سحق البؤس كل هذا ، ولم يبق منه إلا ما يبعث فى القلوب الرحيمه أسى وأسى .

ياجمال ... هل أنت السبب فى شقائها ... ؟ ... إيه ... ليتك لم تكن !! انت حياة .. والحياة لاتكون فى البؤس ، والبؤس لايكون فى الحياة ... فلم سكنت هذه المسكينة ؟ آه .. ليتك لم تكن !!! فتنت بها ذلك الشاب ، وأوقعته فى حبائلك فتخلى بها وأنت شهيد، وأخذها من بين أسرة فقيرة جدا ، ولو تركت فى فقرها لما ذاقت مرارته بعد ماعرفت لذة الحياة ورغد العيش ، ولكن ماالحيلة لها فى بطون الليالى الدوء لابد أن تتجرع كؤوسه ، وتلبس أثواب نحوسه ... فليتك لم تكن لها ياجمال .. .

ومشت منهدمة القوام ، تخطو خطوات الخائف الحائر ، المضطرب الحائر ، يكاد الثرى تحت قدميها يرمس بالأنين ، ويأسرها الكدر ومشى خلفها البؤس وقادها النحس إلى مكان خلوى فسيح ، فجلست تداعب طفلها ، وتعزى به قلبها الجريح ... ... سكنت الطبيعة حولها ونامت الكروان فوق رأسها ونام طفلها وهو عبوس ، وسبحت فى خيالها تسترجع صور أيامها الماضية ، فتبسم لخطوها ، وتحبس لمرها ، تفتح ذراعيها ضاحكة تريد ضم زوجها وهى عروس ، ومرعان ما يطوف ببالها الأسد المفترس فتتراجع مذعورة وتتذكر أنها فى هذا المكان وعلى تلك الحال، فتبكى ما شاءت ..... ثم يراودها الخيال فتعود ..... أمي .. شبابى !!! جمال !!! زوجى !!! طفلى ... سعادتى .... شقائى .. آه !! آه ..... وبينما الأحلام تلعب بعقلها الوسنان ، وتفتك بقلبها فى مفاوز الأوهام ، سمعت رنين صوت خفيف مترنم الرحمة والحنان : علام تبكين ياسيدتى ... ؟ رفعت رأسها وفتحت عينيها الدامعتين ، وإذا رجل طويل القامة ، عريض المنكبين ... غض بصره وابتعد عنها قليلا حتى تأنس إليه ولا تخاف ... فتشجعت وتغلبت على الحياء ، وشرحت له حالها ، وما آل إليه أمرها ، وأخبرته أنها من ..... ولم تملك أجر القطار ... ، فطلب منها أن تتبعه ، فمشت وراءه على استحياء ، وما زالا حتى وصلا إلى داره ..... أكرمتها زوجه وضحك الطفل ولعب ، وأمه تحبس عن عينيها البكاء لأنها عرفت نبأ الدهر وما يخبئه لها ولطفلها المسكين .

ثم أخذها الرجل الكريم وأعطاها قليلا من النقود وأنزلها القطار ورجع بقلب باك حزين ..... وهناك عند ربوة عالية فى ..... وفى زقاق ضيق دخلت على أمها العجوز، وأخيها الصغير فى حجرة ضيقة مظلمة لم يزرها إلا خيوط دقيقة من الشمس وقت الضحى ، فلم يعرفاها لتبدل حالها ، وضياع جمالها ، وكانت هذه أول مرة رأياها فيها بعد زواجها وبعد أن نالا ألا تلاق ..... ولأنها أصبحت فى عداد الأغنياء بزوجها .... وبعد ما انزوت فى قلب أمها التى لا تعنى إلا بجمع الفضلات من موائد الأغنياء لتسد رمقها ، وتجد فى تحصيل قوت ابنها الصغير ـ والفقر ينسى الحبيب ويحول بين الصاحب والقريب ـ ولما عرفاها بكوا جميعا حتى علموم البكاء ، وعاشوا بعد ذلك عيشة المعدمين ، وأخذ البؤس واليأس يتناوبان

قلوبهم وعقولهم ، وقضوا سنة كاملة ولا معين . . . . ووالله لقد كان إعراض الناس عنهم وقسوة الأغنياء عليهم أشد وأنكى من الفقر . . . . فأظلمت الدنيا فى وجوههم وطلبوا الموت والموت لا يجيب . . . .

سكن الليل وأغمض جفونه ، لابساً ثوب الحداد ، لم ينم ولكنه فى حزن عميق ، يحرق قلبه ملل مرير فى جوفه بصيح ، وألم بين أحشائه تنوح ، وعجوز تئن وبقسوة الدهر تبوح ، وضرير يائس يود الموت فيستريح ، فشار كهم الليل حتى فى ثيابهم السود وخيم عليهم بسكونه وهو رهيب . . . . . .

وصار الطفل يئن ويأخذ صوته فى انحدار عميق فيجاوبه صدى فى فؤاد أمه المكلوم فتتأوه بآهات ملؤها الحسرة وتحنو عليه وتقبله فتمتزج دموعها بدموعه ، وتضمه إلى صدرها الضعيف ، فيقفز قفزات ترتج لها أعصابها ، وأما العجوز وأخوها الضرير يتوجان حولها .

وأخذ الدور يتضاءل وقتيل المصباح يتآكل حتى انطفأ ، فسكن الطفل وكأنه أنس الظلام ، وهدأ أنينه وصمت . . . فرحت أمه وظنت أنها وأخاها نياما . . . وغرقت هى فى بحر من الأوهام ، يقتلها اليأس ويحييها الرجاء ، شاخصة ببصرها إلى السماء ، تتمتم بالتوسل والدعاء . . . وبين هذه الظلمة الحالكة ، وفى ذلك السكون الشامل صعدت روح الطفل إلى ربها قبل أن يودع أمه بنظرة ، أو تودعه بقبلة ، صعدت إلى السماء وأمه شاخصة إلى السماء . صعدت إلى السماء تشكو إلى ربها ظلم الغنى للفقير ، وقسوته على من دهمهم الفقر ولم يشفق عليهم ، تشكو ما يحيق بالفقراء من نكبات وما يسلط عليهم من عذاب . . . تشكو ظلم الانسان لأخيه الانسان ، تشكو ممن لم تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا فقرّهم الحياة حتى تملوا بها ، والفترت بهم الحياة حتى هامت بهم ، ومالوا بها ومالت بهم ، فولد الفقير يتيماً غريباً وعاش مظلوماً مضطهداً ، ومات هيناً ومهيناً . . . جاع والتاع ، وأن وانفطر ، وشكا وزفر ، فلم تلن قلوبهم لجائع فيطعموه ، أو بئيس فيفرجوه ، أو ملهوف فينقذوه ، أو غريق فى ظلمات الظلم فينتشلوه . . . . .

محمود البرعى

المدرس بمدرسة ملحقة المعلمين بأسيوط

(يتلى) .